(دراسة في بعض رحلات المغاربة الحجازية في العصر الحديث)
-رحلة أحمد بن طوير الجنة أنموذجا-

أ/ عبدالقادر حليس ، أ.د/ نظيرة شتوان
جامعة الجلفة

ملخص:

لقد اهتم المغاربة بالرحلة و يرجع نظرا لكون الرحلات و الجغرافيا بمثابة مصدر معرفي تاريخي، هذا نتيجة عوامل مختلفة و متشابكة أهلت الرحلة بان تكون كذلك نذكر منها:

وصف الأقاليم و العناية بها والتي اعتبرت جزءا من أخبار الفتوح والمغازي، كما كانت أنحاء الدولة الإسلامية المتسعة الأرجاء تتطلب الدراسة و الوصف تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة و تسهيلا لمهمة الولاة ومن ثَمَّ فقد كان تاريخ المدن و الأقاليم أول ما دُوِّنَ في التاريخ الإسلامي ، مرتبطا بالفتوحات و الجغرافيا و يرجع ذلك إلى صدر الإسلام، و قد ارتقى أدب الرحلات ليصبح فنا أصيلافارتقى إلىمستوى الإبداع و ازداد اتساعا و خصوبة في بلاد المغرب الإسلامي عند المغاربة و الأندلسيين لما عرف عنهم من رغبتهم في الأخذ عن الشيوخ وزيارة الأماكن المقدسة وجولاتهم من أجل الاطلاع و البحث، من هنا كان واجبا على الباحثينالإطلاع على كتب الرحالة لما لها من أهمية بالغة في رسم صورة عن الحياة بمختلف جوانبها على مدى العصور و الأزمنة.

كلمات مفتاحية: رحلات المغاربة ، العصر الحديث، رحلة أحمد بن طوير الجنة

abstract

The Arabs in north Africa – Maghreb- has been interested with traveling around the world. They tried to benefit and learn from the precious knowledge of history and geography,they considered traveling as a valuable resource to the explorer. Many factors prove that the Maghreban were enriching their knowledge with travel; the description of the territories and provinces with the conduction, which are considered part of the news Islamic conquests. The Islamic Caliphate state's large area has an important role in the study of its provinces nature to assist in the application of the provisions of the sharia and helping the work of the governors. The history of towns and provinces was considered as the earliest writing in Islamic history because it's related with the Islamic conquests and geography. The travel literature rated to became original art , reaching to the highest level of creativity in Maghreb Arab and Andalusia by the writers there,who were known by their love to learn from sheikh and insisting to visit the holy places around the Islamic caliphate and their trips for research and learning. Find the knowledge and learning was a duty for Historians in the explorer's books and writings. The explores books show complete image and precious information about the life where they traveled. Biography books,history and literature and the translation writing branch clearify the huge and perfect works of those explores and their trips

مكانة الرحلات:

لقد اكتست كتب الرحلات أهمية بالغة فقد كانت كتب التراجم و السير و التاريخ و الأدب تشير في مجال الترجمة للأشخاص أو التعريف بإنتاجهم إلى الكثير من هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، فأحمد المقري مثلا قد أورد في كتابه نفح الطيب ما يزيد على ثلاثمائة من الرحالين الأندلسيين و المغاربة الذين رحلوا من أجل طلب العلم وحده وليس بغرض التجارة أو الحج[1] وبذلك لم يحصر المقري كل الذين قاموا برحلاتهم و قد صرح المقري بأنه عجز عن رصد و استيعاب كل الذين قاموا بالرحلة وقد أشار إلى ذلك في قوله << إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه و لا بحال ولا يقدر على الإحاطة بذلك إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان

الأقلام في من عرفناه من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب و كثر الكلام، ولكننا نذكر منهم لمعا على وجه التوسيط من غير إطناب داع إلى الإملال و اختصار مؤدى للملام>>[2]

كما نجد العامل الديني قد ساعد على الارتحال،من أجل جمع الحديث من أفواه الرواة،فطبيعي أن تكون الرحلة من أهم الوسائل لطلب العلم في أوائل العصر الإسلامي[3]

و اختلف اهتمام المغاربة بالرحلة فتنوعت أغراضهم فكان منها ما هو ذاتي وهو الأساس الذي تبنى عليه الرحلة، والثاني عام أي أسباب ظاهرية تكون مبررا للقيام بالرحلة[4] وغالبا ما يكون دافع الرحلة سببا في تصنيفها.

فإذا كان طلب العلم و الحج و التجارة ،تمثل العوامل التي دفعت المغاربة للقيام بالرحلة فإن هناك عاملا آخر دفع غير المسلمين إليها في العصر الحديث ،ألا و هي الكشوفات الجغرافية ثم الاستعمار[5]

وعلى العموم فإن الاهتمام المغربي بالرحلة نابع من رغبة دينية تمثلت في زيارة بيت الله الحرام لما يكتسيه من طابع التقديس فلا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حج إليه ملايين البشر مثل الجزيرة العربية، ولا يوجد موطن استقطب حس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها الروحية مثل الحجاز الذي يتواجد به البيت العتيق و مقصد الحجاج و مهبط الرسالة الذي يُعَدُّ قبلة لكل مؤمن[6]

لذا كانت وجهة المغاربة نحو بلاد المشرق ، و تدوينهم لمشاهداتهم جعلهم يهتمون بالرحلة كأدب فني فتفوقوا فيه وألفوا فيه مؤلفات بديعة طبع بعضها و أكثرها لا يزال مخطوطا،و منها ما يعتبر ضائعا و لا يعرف إلا بالنقل عنه في كتب الأدب و التراجم[7]

رحلة أحمد بن طوير الجنة

1-1 تعريف بصاحب الرحلة

هو الطالب أحمد المصطفى بن طوير الجنة، من عشيرة الصيام من قبيلة إداو الحاج المعروفة بعلمائها و هي ما لها من حضور في الثقافة العربية الإسلامية ببلاد شنقيط ، كانت ولادته سنة 1145 هـ الموافق لـ 1732 م في وادان ، وهي مدينة عريقة في بلاد شنقيط يعود تاريخ بنائها إلى سنة 1142م، بناها أجداد قبيلة إداو الحاج عند استقرارهم ببلاد شنقيط وسموها بهذا الاسم، لأن بها واديين وادي علم ووادي تمر، وظلت منذ تأسيسها مركزا تجاريا مُهِمًّا يربط بين المغرب و السودان كحاضرة علم وإشعاع ثقافي في بلاد شنقيط[8]

تلقى ابن طوير الجنة دراسته الأولى بمسقط رأسه في سن مبكرة، وأخذ العلم على يد مجموعة من علمائها، منهم ابن عمه أحمد سالم بن الإمام الحاجي من أولاد إبراهيم بن الحاج وكان فقيها نحويا منطقيا حسابيا وقد توفي سنة 1239هـ 1823م بمدينة فراس بالمغرب، كما أخذ عن أخيه السالك ابن الإمام المتوفي سنة 1246م، وكان عالما جليلا وشيخا صوفيا أخذ عن الشيخ أحمد التجاني وكان عالم وادان وإمامه حسب قول بن انبوجه في ضالة الأديب[9]

كما أخذ أيضا عن العلامة محمد نفال بن امباركي الشمشري وذكر أنه شيخه وشيخ الوادانيين عموما، وابن امباركي توفي سنة 1269هـ/ 1852م، وبعد أن استكمل دراسته للعلوم و المعارف المتداولة في هذه الحاضرة العلمية انتقل إلى تكانت ليتتلمذ على علامة تجككجة الشيخ عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي[10] فأمضى في صحبته اثنين وعشرين سنة، قضى منها عشرين سنة في دراسة علم الظاهر وسنتين في دراسة علم الباطن، وقد لازمه خلال هذه المدة ملازمة المريد لشيخه، فلم يفارقه ولا يوما واحدا، ولم يزر أسرته ولا مرة واحدة، ويذكر المختار بن حامد أنه أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن عبدالله التوريني، عن أبيه عبدالله التوريني، عن أحمد بن ناصر الدرعي[11]

وعاد ابن طوير الجنة إلى مدينة وادان حاملا معه زادا معرفيا كبيرا من العلوم الشرعية ومُتِمَاتها من لغة ومنطق وغير ذلك، وتأسست حوله محظرة أَمَّها الطلاب الوادانيون وغيرهم وكان من أبرز تلامذته محمد عبدالله بن محمد الأديب[12] و قد ذكر الطالب أحمد في أثناء رحلته تلميذه الوفيّ محمد الصابر التاشدبيتي ويبدو أنه كان من مقربي تلاميذه[13]

أما عن مناقب ابن طوير الجنة فيُذكر أنه كان على درجة عالية من الزهد و الصدق و الورع، ملازما للمسجد، عظيم الاعتقاد في الصالحين، يحب التفاؤل[14]، و ذلك يبدو جليا في هذه الرحلة التي تحفل بالمرائي و المبشرات، كما اشتهر بصداقته للسلطان مولاي عبدالرحمان وولي عهده محمد، وقد تمكن بفضل هذه الصداقة من فتح زاوية بمراكش قرب ضريح ميمون الصحراوي تحمل اسمه، كما تمكن أيضا من نسج علاقات قوية مع عدد من علماء وملوك وأمراء وأعيان البلدان التي مر بها في رحلته، وخاصة في المغرب و الجزائر و تونس وليبيا ومصر، بالإضافة إلى بعض رجال الإدارة الفرنسية و الانجليزية الذين حاولوا التقرب منه لمعرفة أحوال المغرب وبلاد شنقيط، مثل الدوق دوورو فيكو، الحاكم الفرنسي في الجزائر[15] و القنصل البريطاني في جبل طارق وليام هوستون وغيرهما[16]

2-1 وفاته:

وافت المنية الطالب أحمد طوير الجنة في الثاني من شهر رمضان سنة 1265هـ/1849 م و ذلك ماأورده ناسخ تاريخه في نهاية النص وقد توارت على ذلك نصوص الحوليات التي ذكرت وفاته كابن انبوحة في فتح الرب الغفور و المحجوبي في منح الرب الغفور[17]

3-1 مؤلفاته :

يزخر الإنتاج الفكري للطالب احمد بكثير من المصنفات والتآليف متعددة المواضيع نذكر منها:

1 . حوليات تاريخية تبدأ بوفاة عائشة أم المؤمنين و تنتهي بذكر الحوادث التاريخية في بلاد شنقيط، مسلسلة من سنة 1070هـ 1659م إلى سنة 1258هـ / 1842م، وقد حققها أحمد بن أحمد بن سالم في كتاب بعنوان "تاريخ بن طوير الجنة"[18]

2 . فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان:وهو عبارة عن رسالة ألفها عائدا من الحج وكان يومها في مدينة برقة بليبيا وذلك سنة 1247هـ/1831م وتقع في 29 صفحة، وقد رد فيها على من يسميهم بالمعتزلة ويذكر عدم تقيدهم بالتعاليم الشرعية و السلوك الإسلامي القويم[19]

3 . كتاب التوحيد يشرح فيه عقيدة الطالب جدو الغلاوي.

4 . اختصار لنظم ابن شقرون في الطب.

5 . رسالة في الرد على الرسالة الغلاوية للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي.

6 . الأجوبة المفحمة الكافية ومن تَعَنُّتِ كل مُتَعَنِّتٍ شافية.

7 . الأجوبة الطرابلسية.

8 . نظم في المنطق.

9 . السراج في العلم المبين ونوره للمقرئين.

10 . رحلته المشهورة رحلة المُنى و المِنَّة وهي نص طويل وصف فيه رحلته إلى الديار المقدسة منذ أن انطلق من مدينة تيشيت يوم الخميس السابع جمادي الأولى سنة 1245 هـ / 1829م حتى عودته إلى مدينته وادان سنة 1250هـ /1834 مقبل رمضان بثلاثة أيام كما يقول في كتابه تاريخ بن طوير الجنة[20]

4-1 الرحلة و قيمتها العلمية:

رحلة الطالب أحمد بن طوير الجنة و التي أطلق عليها اسم رحلة المنى و المنة، من الرحلات الحجازية الشنقيطية المهمة التي زخرت بالعديد من المعلومات التاريخية مست جميع النواحي وخاصة منها الدينية، فهي نص حجازي دَوَّنَ فيه صاحبه أخبار رحلته إلى الديار المقدسة منذ أن انطلق من مدينة تشيت يوم الخميس 7 جمادي الأولى سنة 1245هـ / 1829م إلى أن عاد إلى مدينة ودان يوم 27 شعبان 1250هـ/1834م، وقد دامت هذه الرحلة حوالي خمسة سنوات، وجميع البحوث و الدراسات التي تناولتها تجمع على صحة نسبتها إلىابن طوير الجنة[21]

5-1 مسار الرحلة:

تمت هده الرحلة الحجازية في ظروف سياسية متميزة تمثلت في تفكك الدولة العثمانية من جهة، ومن جهة ثانية طمع الدول الأوربية في ممتلكاتها و اكتساحها لبعض هذه الممتلكات مثل الجزائر و تونس وغيرهما، وطغيان الفكر الديني و الطرقي على الثقافة العربية الإسلامية من الناحية الدينية، أما الاجتماعية فقد تميزت المرحلة بانتشار الوباء الكاسح في العالم، ويمكن أن نميز في مسارها بين المحطات التالي:

أ- محطات الذهاب ومن أبرزها[22]

-شنقيط حيث مَرَّ على " تيشيت .ولاتة .تجكانت ."

-سوس حيث مَرَّ على لكصيب، آق، تيوت، تارودانت.

-مركش، فاس، العرائش، ايفرن.

-الاسكندرية، بولاق، السويس، داخل المجال المصري.

-جدة، المدينة المنورة، مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة.

ب- محطات الإياب ومن ابرزها[23]

1- القاهرة، الاسكندرية

1. درن، مصراته، بنغازي، طرابلس، داخل المجال الليبي.
2. صفاقس، جربة، سوسة، المنستير، القيروان، تونس، داخل المجال التونسي.
3. الجزائر
4. جبل طارق
5. طنجة، العرائش، وزان، مكناس، الرباط، أزمور، مراكش، الصويرة، وادي نون، تيرس، وادان.

1-6 مضمون الرحلة :

يشكل أدب الرحلات نمطا قائما بذاته، لكن جوهر الرحلات الحجازية ديني، ولذلك نعتقد أن سبب تدوين الرحلات الحجازية هو التحدث بنعمة الله التي يرى كل رحالة مسلم أنها اكتملت لديه بأدائه فريضة الحج و العودة سالما إلى أهله في دياره ووطنه[24] وعليه يعتبر الحج من أبرز موضوعات رحلة المنى و المنة لابن طوير الجنة، وإن كان لا يشغل من فضائها النصي سوى خمس صفحات من مجموع صفحاتها، ولذلك تصنف ضمن الرحلات الحجازية، وتتخللها موضوعات مختلفة تساهم في بنائها ونسج خيوطها، لعل من أبرزها[25]

.عرض محطات الرحلة، وتتبع الأحداث التي ميزتها من بدايتها إلى نهايتها.

.ذكر المزارات و الأضرحة و القبور التي زارها الرحالة ووقف عليها.

.ذكر السلاطين و الحكام و الأولياء و العلماء الذين التقى بهم الرحالة و حظي بدعمهم وحسن استقبالهم.

.ذكر بعض الحوادث التي ميزت العصر زمان الرحلة.

.استحضار بعض العجائب و الحكايات و الأشعار و الحكم[26]

1-7 القيمة العلمية للرحلة:

تضمنت رحلة بن طوير الجنة مادة غنية أكسبتها أهمية كبرى في تاريخنا العربي الإسلامي، وتبرز تلك الأهمية فيما تتضمنه من قيم و دلالات تاريخية و اجتماعية و ثقافية و سياسية.

و نشير إلى أن الجانب الديني و الروحي من رحلة بن طوير الجنة، قد تمت الإشارةإليه من خلال النصوص التي تتكلم عن الحج و مشاعره و مواقفه، فليس الحج في حقيقة الأمر كما يبدو من خلال هذه الرحلة وغيرها من الرحلات الحجازية مجرد مناسك بل هو لقاء روحي تتواصل فيه القيم و الأرواح، بين الحجاج رغم اختلاف ألسنتهم وثقافتهم وأجناسهم و مستوياتهم الاجتماعية، فتطمئن قلوبهم بربهم، وتتجدد طاقاتهم، و تتوحد مشاعرهم[27] فقد خصص بن طوير الجنة ثلث رحلته لذكر الأولياء الأحياء منهم والأموات، وتكاد رحلته تكون دليلا دقيقا للكثير من الأضرحة و المزارات في المغرب الأقصى و في البلاد الواقعة على طريق الحج المغربي، بل

ويمكن بالمادة المنقب عنها و الموجودة بين الثنايا بناء قسم كبير من جغرافية المقدسات الإسلامية[28]

إلى جانب هذا فقد تمثلت القيمة الفكرية و الثقافية للرحلة، في ذلك التواصل بين علماء و أدباء البلدان التي تتحرك داخلها من بداية الرحلة إلى نهاية مسارها، فهي ديوان حافل بالأشعار و المساجلات و المناظرات و اللقاءات العلمية بين مؤلفها و أدباء المشرق العربي و البلدان التي مر بها في طريقه للحجاز.

وقد عمد بن طوير الجنة إلى تأليف كتاب رد به على فكر المعتزلة كما يبدو من خلال نص رحلته لَمَّا مر بطرابلس الغرب وشكا إليه عرب برقة وأهل ودان من فكر المعتزلة في بلادهم، فألَّفَ لهم تأليفا سماه فيض المنان في الرد على معتزلة هذا الزمان، وبهذا نجد أن ابن طوير الجنة يحتك بالمجتمعات و يتأثر و يؤثر و يختلط بعلمائها و أدبائها وصلحائها ويتحاور معهم، ويتبادل و يتبادل الرأي معهم فيما يشغلهم من قضايا فكرية ومذهبية،ولا يتقاعس في الخوض في هذه القضايا وإبداء الرأي فيها وإصدار الفتاوى والأحكام في شأنها، وقد أضفى هذا البعد العميق طابعا موسوعيا على رحلة المنى و المنة لابن طوير الجنة، فقد خرج بها من إطارها المحدود المتمثل في أداء فريضة الحج، وجعلها تلامس عوالم أخرى زادتها غنى و عمقا[29]

أما بالنسبة للقيمة السياسية للرحلة فهي كما سبقها من الرحلات الحجازية المغربية، فهي غير واضحة المعالم، ويرجع ذلك لعدم وضوح الرؤية السياسية و نضوجها لدى ابن طوير الجنة، وسيطرة الفكر الديني لديه على نظرته للكون و الإنسان و الحياة، وانشغاله بالحج والعقيدة و التصوف[30]

أما فيما يخص القيمة الحضارية للرحلة فتظهر فيما تعرضه من مظاهر التمدن التي أثارت استغراب صاحبها في بعض المدن التي مر بها أثناء خط سير رحلته الحجازية[31]

الإحالات والهوامش:

1 - الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، ط2، منشورات عكاظ، المغرب، 2002، ص47.

2 - المقري : نفح الطيبنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2 ص5 انظر أيضا الحسن الشاهدي:أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ، دار عكاظ للطباعة والنشر، ط1 ،المغرب، 1990 ، ص 48 وايضا: اغنا طيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي:تاريخ الادب الجغرافي العربي،تر:صلاح الدين عثمان هاشم،ج1،لجنة التأيف و الترجمةو النشر ،جامعة الدول العربية،1957، ص 18.

3- المصدر نفسه، ص 11.

4- ناصر عبد الرزاق الموفي : المرجع السابق، ص 26.

5- أحمد رمضان احمد : المرجع السابق ص14.

6- عبد العزيز بن عبد الله: الرحلات الحجازية المغربية كشف لأمجاد الجزيرة العربية، مجلة دعوة الحق، وزارة ا؟لأوقاف و الشؤون الإسلامية ، اللملكة المغربية، العدد العدد 261 ربيع الثاني 1407/ دجنبر 1986، ص45.

7-محمد الفاسي،الرحالة المغاربة و آثارهم مجلة دعوة الحق عدد: 1958/02 م،ص11.

8 . الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة الْمُنَى و الْمِنَّةِ، تح:محمد الظريف ،المصدر السابق، ص 29 .أنظر أيضا: ابن انبوجه عبدالله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن العلوي التيشيتي:ضالة الأدب، تح احمد ولد الحسن، مشورات المنظمة الاسلامية للتربية و العلوم و الثقافة . ايسيسكو،مطبعة ديديكو،سلا المملكة المغربية، 1996م، ص 98.

9-الطالب أحمد بن طوير الجنة: تاريخ ابن طوير الجنة،تح سيدأحمد بن أحمد سالم،نصوص ووثائق،منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ،المملكة المغربية، 1995م،ص26.

10-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة الْمُنَى و الْمِنَّةِ، تح ودراسة حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية ،بيروت 2013، ص 6

11-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح:محمد الظريف، المصدر لسابق، ص30

12-االطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة ، تح ودراسة حماه الله ولد السالم: المرجع السابق، ص7.

13-الطالب أحمد بن طوير الجنة: تاريخ ابن طوير الجنة ،مصدر سابق، ص27

14-نفسه ص28

15- محمد المنصور : رحلة أحمد بن طوير الجنة،مجلة المناهل ،وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية،الرباط ،المغب العدد17 لسنة السابعة، مارس 1980م، ص 395.

16- الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح:محمد الظريف، المصدر لسابق، ص30.

17- الطالب أحمد بن طوير الجنة :تاريخ ابن طوير الجنة،المصدر السابق، ص30.

18- الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح:محمد الظريف، المصدر لسابق، ص31.

19- أحمد بن طوير الجنة:تاريخ ابن طوير الجنة،المصدر السابق، ص30.

20-نفسه، ص 101

21-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح: محمد الظريف، المصدر السابق، ص 33.

22-نفسه،ص33.

23-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح: محمد الظريف، المصدر السابق، ص 34.

24-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة الْمُنَى و الْمِنَّةِ، تح ودراسة حماه الله ولد السالم، المصدر السابق، ص08.

25-المصدر نفسه، ص 36.

26-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح: محمد الظريف، المصدر السابق، ص36.

27-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح: محمد الظريف، المصدر السابق، ص37

28-الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح ودراسة حماه الله ولد السالم، المصدر السابق، ص08

29- الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى و المنة، تح: محمد الظريف، المصدر السابق، ص36.

30- نفسه، ص 40.

31- نفسه.ص40.